بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

هذا الجزء الأخير من تاريخ الأدب العربى خاص بالجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان بدأته بالحديث عن الجزائر وجغرافيتها وتاريخها القديم أيام الفينقيين والرومان والوندال والبيزنطيين وولاتها أيام الدولتين الأموية والعباسية وتبعية القسم الشرقى منها لتونس أيام الدولة الأغلبية وتأسيس الخوارج الإباضيين للدولة الرستمية فى تاهرت ، وأسس إدريس الحسنى دولة الأدارسة فى فاس ، وقضت الدولة العبيدية على الدول الثلاث : الأدارسة والرستمية والأغلبية ، واتخذت القيروان عاصمة لها ثم المهدية . ويتحول المعز العبيدى بتلك الدولة إلى القاهرة وتشتهر باسم الدولة الفاطمية وينيب عنه فى تونس والبلاد المغربية بلكين الصنهاجى ، وجعلها وراثية فى أبنائه ، وتتطور الظروف ويعلن المعز بن باديس حفيده استقلاله بالمغرب وتونس وإسقاط الدعوة العبيدية من بلاده ، فيسلط عليه الخليفة الفاطمى المستنصر أعراب بنى هلال وبنى سُلَيْم النازلين بشرقى الصعيد ، وكانوا نصف مليون أو يزيدون ، فزحفوا على ليبيا وتونس ، واستولوا على القيروان وغيرها من المدن ، وأهلكوا الحرث والنسل . وكان حماد بن بلكين عم المعز بن باديس استقل فى بجاية شرقى الجزائر واستطاع أبناؤه أن يداوروا بنى هلال وتَسْلم لهم دولتهم إلى أن قضى عليها عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وأسس أحد ولاة دولته الدولةَ الحفصيةَ فى تونس وشرقى الجزائر . وفى نفس التاريخ قامت دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان وغربى الجزائر ، وتتدهور الدولتان منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى الإسبان على مدن متعددة، فى الساحل الجزائرى، شرقية وغربية ، ويغضب للجزائر بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين . وتحرَّر الساحل الجزائرى فيما عدا مدينتى المرسى الكبير ووهران ، وتتحرر مدينة المرسى الكبير سريعا ، وتبعت الجزائر الدولة العثمانيّة وظلت تابعة لها إلى أن احتلتها فرنسا سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م.

وتنزل الجزائر – مع أهلها من البربر – عناصر من أجناس آسيوية وإفريقية وأوربية : فينيقية وقرطاجية ورومانية ويهودية وألمانية من الوندال وبيزنطية ثم حملة مشاعل الدين الحنيف من

جنود العرب والشعوب الإسلامية التى انتظمت فى جيوشهم . وظل ينزلها فى المدن الساحلية بعض اليهود، وهاجر إليها جمهور السكان فى صقلية حين استولى عليها النورمان وكتلة كبيرة من مسلمى الأندلس حين استولى عليها نصارى الإسبان ، وجلب إليها قراصنتها كثيرا من نصارى أوربا كما جلب إليها ولاتها العثمانيون حاميات من الإنكشارية: ترك وغير ترك ، وكل هذه العناصر ذابت فى الجزائر لما تمتاز به من قوة الشخصية .

وأساس المعيشة فى الجزائر زراعة القمح والشعير ورعى الأنعام ، وتكثر بها أشجار النُّقْل والفواكه من كل صنف ، كما تكثر الصناعات اليدوية وصناعة الحلى وأوانى الخزف والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية والحريرية ، ومعاصرُ الزيتون كانت منتشرة فى بلدان مختلفة ، ومواد البناء كانت متوفرة ، ولذلك كثرت إقامة المدن الجديدة ، وكثر على السواحل صيد السمك والحيتان . وازدهرت التجارة واتسع الثراء وجرَّ إلى رفه فى الملبس والمأكل والمسكن ، حتى لنشعر إزاء تلمسان وبعض المدن أنها متحضرة حضارة حقيقية . ويتمم هذه الحضارة وما طُوى فيها من رفَهٍ عناية الجزائريين بالموسيقى . وعرفت الجزائر الديانتين النصرانية واليهودية ، ولا يكاد يمر نصف قرن – بعد الفتح – حتى يصبح شعبها إسلاميا عربيا ، وكانوا سنية على مذهب مالك إلا ما كان من تاهرت وقيام دولة الإباضية فيها لنحو قرن ونصف . وتكاثر فى محيط تلك الدولة المعتزلة وحملوا السلاح ضد الإباضية ولم يكتب لهم النصر . ونشط المذهب الحنفي فى عهد العثمانيين، ولكن عامة الجزائريين ظلت مالكية إلى اليوم . وشاعت فى الجزائر نَزْعة صوفية ، ونزلها بعض أصحاب التصوف الفلسفى الأندلسى وفى مقدمتهم أبو مدين شعيب ، غير أن التصوف السنى هو الذى ساد فى الجزائر وانتشرت طريقتاه القادرية والشاذلية .

وكان أول من قام على الحركة العلمية بالجزائر الفاتحون الناشرون للإسلام ، إذ كان الجندى الفاتح بمجرد أن يضع قدمه فى بلدة أو قبيلة يأخذ فى تحفيظ معتنقى الإسلام القرآن الكريم أو بعض سوره وبعضَ كلم العربية فى التخاطب وفروضَ الإسلام ونوافله . وأخذت الحركة العلمية فى الجزائر تنمو سريعا بفضل الكتاتيب والمساجد وما بها من حلقات الشيوخ حيث تُلْقَى محاضرات فى مختلف العلوم الشرعية واللغوية . وزاد الحركة سرعة فى النمو تأسيسُ المدارس والزوايا وإنشاء المكتبات فيهما وفى المساجد ، وكانت ترعى الحركة العلمية الدول التى نشأت فى الجزائر ، الدولة الإباضيةفى تاهرت ودولة بنى حماد فى بجاية وقلعتها ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى تلمسان ، وكان من العوامل القوية فى نشاط الحركة العلمية بالجزائر نزوح الأندلسيين إليها بالآلاف فى القرن السابع الهجرى والحادى عشر . وعرضتْ علماءها الأعلام فى علوم الأوائل الرياضية والفلكية والطبية وفى الفلسفة وعلم المنطق ، وبالمثل

فى علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة ، وفى علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ . ومع كل عَلَمٍ من عشرات هؤلاء الأعلام فى الميادين العلمية أهم كتبه ، ومع كل عِلْمٍ ما يصور تطوره فى مختلف العصور ،

وكانت اللاتينية منتشرة فى الساحل الشمالى للجزائر قبل الإسلام ، وكان الشعب الجزائرى يتكلم البربرية لغة آبائه وقومه ، وأخذت العربية تقهر اللغتين فى ألسنة البربر ، لأنها لغة دينهم الحنيف ، وبدون ريب تعربت المدن الكبيرة منذ القرن الثانى للهجرة ، وخاصة المدن الشمالية أما فى الداخل والجبال فيظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية فى حياتهم اليومية. وأتمت الزحفة الأعرابية فى منتصف القرن الخامس الهجرى تعرب الجزائر ، والمظنون أن لغة الأعراب الفصيحة أخذت تفسد منذ القرن السابع وأخذ ينشأ شعر شعبى على نحو ما نعرف فى قصة الهلالية ، غير أن الشعر الفصيح ظل هو المسيطر ، وله الكلمة العليا ، وقد أخذ يكثر شعراؤه ، وذكرتُ أعلامهم فى الدول والعصور المختلفة . ثم أخذت أفصِّل الحديث عن شعراء المديح وأهمهم على مر الزمن والدول ، وترجمت منهم لعبد الكريم النهشلى وعبد الله بن محمد التنوخى (قاضى ميلة) وابن خميس ومحمد بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى والشهاب بن الخلوف ومحمد القوجيلى . وعرضت شعراء الفخر ، ومن أعلامه أبو حمو موسى الثانى ، وبالمثل شعراء الهجاء ، ومن كبار الهجائين بكر بن حماد التاهرتى وسعيد المنداسى ، كما عرضت أصحاب الشعر التعليمى ومن أفذاذهم عبد الرحمن الأخضرى ناظم السلم المرونق فى علم المنطق. وتحدثت عن شعراء الغزل على مر العصور وترجمت لأهم أعلامه : محمد بن أحمد الأريسى وابن على ، وعرضت شعراء وصف الطبيعة مع الترجمة لإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى وتحليل ملحمته فى الصيد . وتناولت شعراء الرثاء على مر الزمن ، وترجمت لعلَمه : محمد بن على بن حماد القلعى . وعرضت شعر الزهد والتصوف وترجمت لعلمين هما أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجى وإبراهيم التازى . وتحدثت عن شعراء المدائح النبوية على مر التاريخ الجزائرى ، وترجمت لمحمد بن عبد الله العطار ، وله ديوان فى المديح النبوى الشريف .

وتحدثت عن الخطب والوصايا فى عهد الدولة الرستمية وفى بجاية وتلمسان مع الإلمام بكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وهو وصية كبيرة قدمها أبو حمو موسى الثانى لابنه : أبى تاشفين . وعرضت الرسائل الديوانية فى عهد الدولة الإباضية والدولة الحمادية ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى تلمسان ، وبالمثل فى العهد العثمانى ، كما عرضت الرسائل الشخصية ، وحلَّلت رسالة ابن الربيب المشهورة ملاحظا شيوع السجع فى الرسائل الشخصية حتى نهاية العهد العثمانى . ويكتب الأدباء مقامات أشبه برسائل أدبية يتناولون فيها بعض الموضوعات دون أى اهتمام بتقاليد مقامات الهمذانى والحريرى القائمة على الكدية والشحاذة الأدبية .

وترجمت بعد ذلك لأعلام الكتاب الجزائريين ، وهم أبو القاسم عبد الرحمن القالمى والوهرانى وأبو الفضل بن محشرة .

٢

وانتقلت إلى المغرب الأقصى وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم زمن الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ، وأتمَّ العرب فتح المغرب الأقصى ونشر الإسلام به فى الأعوام السبعين المتممة للقرن الأول الهجرى وجنّد الولاة العظام حينئذ بعض الشباب المغربى فى الجيش العربى فأصبحوا رفقاء سلاح للعرب واختاروا منهم بعض الولاة والقواد ، غير أن ولاة بنى أمية فى القرن الثانى الهجرى انحرفوا عن هذه السياسة التى يأمر الدين الحنيف باتباعها فى الشعوب الإسلامية الجديدة ، فأذاقوا أهل المغرب خسفا وظلما ، وانتهز الفرصة الصفرية من الخوارج وأرسلوا دعاتهم إلى المغرب الأقصى ، وتبعهم كثيرون ونشبت حروب متعددة بين صفرية المغرب وولاة بنى أمية إلى أن قُضِىَ على ثورتهم فى الشمال وانسحبوا إلى سجلماسة وقامت بها حكومة بنى مدرار الصفرية ، وقضى عليها أمويو الأندلس . واستطاع إدريس سليل الحسن بن على بن أبى طالب أن يكوِّن فى فاس دولة الأدارسة ، وهى أول دولة إسلامية عربية فى المغرب الأقصى ونشرت به الإسلام والعلوم الإسلامية والعربية، وقُضِىَ عليها فى القرن الرابع الهجرى . وتُظِلُّ دولة المرابطين المغرب الأقصى فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وتحدث به نهضة علمية وأدبية، وتنقذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان وتنشر الإسلام فى ربوع إفريقيا المدارية ، وتخلفها دولة الموحدين محاولة أن تنشر لزعيمها ابن تومرت عقيدة متأثرة ببعض مبادىء الشيعة والمعتزلة ، وتبلو هذه الدولة بلاء حسنا فى إنقاذ ساحل ليبيا وإفريقيا التونسية من النورمان والتنكيل بنصارى الإسبان فى غير موقعة وخاصة موقعة الأرك التى سُحقوا فيها سحقا . وتخلفها دولة بنى مرين ولها دور عظيم فى منازلة نصارى الأندلس والدفاع عن غرناطة ، غير أنها تخاذلت فى أواخر أيامها إزاء الاحتلال البرتغالى لبعض الموانى على المحيط والزقاق . ونوهتُ بشباب مغربيين قاوما البرتغاليين مقاومة عنيفة . وقاومهم الوطاسيون فرع من بنى مرين بقدر استطاعتهم ، وخلفهم السعديون ومحقوا البرتغاليين محقا فى معركة وادى المخازن وقتل ملكهم وأخذوا ينسحبون من الموانى التى استولوا عليها . وقاومهم الصوفية ومن أهمهم أبو عبد الله محمد العياشى محرر العرائش وآزمور والجديدة وإن كانوا عادوا إليها بعده . وقامت الدولة العلوية ومن أهم حكامها إسماعيل محرر طنجة والعرائش وحفيده محمد بن عبد الله محرر الجديدة ، ويعتلى عرش تلك الدولة الحسن بن محمد سنة ١٨٧٣ ويقود نهضة حضارية وفكرية ، وفى رأينا أن عهده يعد بدء العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

وعناصر السكان فى المغرب الأقصى هم البربر سكانه منذ العصور السحيقة ومن استقر بديارهم من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ثم العرب ومن انتظم فى جيوشهم من الشعوب الإسلامية الآسيوية والإفريقية ، والأندلسيون المهاجرون إلى المغرب الأقصى فى عهد الحكم الربضى بالقرن الثانى الهجرى ومن هاجر بعدهم فى القرنين السابع الهجرى والحادى عشر ، واليهود ومن نزل منهم بالمغرب فى عهد الفينيقيين والرومان والعهود الإسلامية ، والنصارى وظلت منهم بقايا فى المغرب من الرومان والبيزنطيين ، واتخذ المنصور الموحدى حرسا من الروم عداده خمسمائة ، وجلب القراصنة من البحر المتوسط كثيرا من نصارى أوربا . وكان أهل المغرب الأقصى يعيشون على زراعة القمح والشعير والذرة والبقول والخضر ويكثر الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والبحيرات والأنهار كما يكثر صيد البر من الحيوانات الوحشية : النعام والوعول والبقر الوحشى ، وتكثر أشجار الفواكه من جميع الأصناف والنخيل والنقل وأشجار النيلة للصباغة ، وتكثر المعادن وخاصة الحديد ، وصنعوا فى بنى يازغة « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وتكثر مواد البناء مما هيأ لبناء بعض المدن والمنشآت العمرانية الكثيرة ، وتكثر المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية والحريرية . وكان بمراكش حديقة للحيوان الوحشى . وازدهرت التجارة ازدهارا عظيما وكثر ثراء الناس فى المدن الكبيرة والموانى ، وكان بفاس مائة حمام ومائتا فندق ، وعظم الرفه فى الملبس والمأكل ولعب التسلية وأقام سلاطين فاس مسرحا لصراع الرجال والثيران مع الأسود ، وعنوا بالموسيقى عناية واسعة . وكانت المرأة فى المجتمع المغربى تحظى بمكانة عظيمة ، وكانت كثيرات منهن عالمات وأديبات وطبيبات ، وكان لبعض فضلياتهن ندوات أسبوعية يلقين فيها الشعراء ويحاورنهم وينقدن بعض أشعارهم ويمنحنهم جوائز نفيسة ، وكان منهن من تحاضر النساء فى الفقه كما يحاضر العلماء فيه الطلاب ، وألممت بشيوع المذهب المالكى الفقهى . وفصلت القول فى عقيدتى الصفرية والمعتزلة اللتين انتشرتا فترة فى المغرب الأقصى وفى مذهب الظاهرية وازدهاره فى عصر دولة الموحدين ، وألممت بحركتى الزهد والتصوف وانتشاره . وتناولت الحركة العلمية وكيف أن الفاتحين كانوا ناشرين للإسلام ومعلمين ، وتحدثت عن دور العلم من الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا والمكتبات وعن إنماء الدول المختلفة للحركة العلمية وما كان لنزول الأندلسيين فى المغرب الأقصى من عمل فى هذا الإنماء وبعث حركة تعليمية واسعة فيه . وعرضتُ علوم الأوائل وأعلامها فى الرياضيات والطب والفلسفة وعلم المنطق ، وتحدثت عن أعلام علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة وبالمثل تحدثت عن أعلام علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ ، ومع كل عِلْم من هذه العلوم جميعا بيان واضح عن تطوره على مر العصور ، ومع كل عالم أهم أعماله .

وكان المغرب الأقصى قد أخذ فى التعرب منذ دخول جماهيره فى الإسلام ، وأُسِّست دولة

الأدارسة فى فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م وكانت دولة عربية إسلامية ، فعملت – بقوة – على تعريب المغرب الأقصى ، وعُنيت بفتح الكتاتيب فى المدن وتحفيظ الناشئة بها القرآن الكريم وأنشأتْ فى المساجد حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومَنْ يعلمون الناس العربية ، وبذلك رسخت العروبة ورسخ الإسلام فى المغرب الأقصى . وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى غير أن عشائر قليلة منها تسربت إلى المغرب الأقصى . ويدور الزمن ، ويدخل المرابطون المغرب الأقصى ويطهرونه من الروافض ومن نحلة برغواطة الضالة وأخذ الأندلسيون فى عهد تلك الدولة يندمجون فى سكان المغرب الأقصى وكان لذلك أثره فى تعريبهم إذ كانت الأندلس عربية خالصة . وينقل عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى ألفا من قبائل الأعراب فى الجزائر : من قبائل الأثبج وزغبة ورياح وقرة ، امتزجوا بسكانه ، وفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م استصرخ عبد المؤمن أعراب بجاية والجزائر للجهاد فى الأندلس ولبَّاه كثيرون ، ولنفس الغاية دعا ابنه يوسف قبيلة رياح فلباه حشد ضخم منهم ، ونقل ابنه يعقوب بقايا قبائل الأثبج ورياح وجشم إلى المغرب الأقصى: أنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط فى الشمال وأزغار فى الغرب وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة فى الغرب والأثبج فى منطقى دكالة وتادلة ، وانساح كثيرون من هؤلاء الأعراب فى ديار المغرب الأقصى ، وبذلك كله تعرب المغرب الأقصى نهائيا .

ويكثر الشعراء منذ عصر الدولة الإدريسية ويتكاثرون كثرة مفرطة فى عصر دولة المرابطين وما تلاها من عصور ، وعرضت أعلامهم المهمين فى كل تلك العصور وما كان بها من دول ، وتحدثت عن شعراء الموشحات وتلمذة شعراء المغرب الأقصى لشعراء الأندلس فى فن التوشيح وظهور وشاحين مغاربة نابهين ، وترجمت منهم لابن غُرْلة وابن الصباغ وابن زاكور ، كما تحدثت عن شعراء الأزجال ، وترجمت من بينهم لابن عمير وابن شجاع التازى . وعرضت شعراء المديح وترجمت من بينهم لابن زنباع وابن حبوس والجراوى وابن عبد المنَّان والهوزالى وأحمد بن القاضى والدغوغى والبوعنانى ، كما عرضت شعراء الفخر والهجاء وترجمت للشاذلى ولأصحاب الشعر التعليمى وترجمت لعبد العزيز الملزوزى وابن الونان . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت لأبى الربيع الموحدى ولعمر السلمى ، وبالمثل تحدثت عن شعراء الوصف وترجمت لعبد العزيز الفشتالى ، وعرضت شعراء الرثاء وترجمت لابن شعيب الجزنائى وأبى على اليوسى الحسن بن مسعود ، وشعراء الزهد والتصوف وترجمت لابن المحلى ، وشعراء المدائح النبوية وترجمت لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

وتركت الشعر إلى النثر وكتَّابه ، وبدأت بالخطب والمواعظ مع بيان أهم الخطباء والوعاظ ، وتحدثت عن الرسائل الديوانية وأهم كتابها مع عرض بعض الرسائل فى مختلف العصور والدول ، وبالمثل تحدثت عن الرسائل الشخصية وعن المقامات وأهم نماذجها وكتابها ، وعرضت

الرحلات المهمة وفى مقدمتها رحلة ابن رشيد ورحلة العبدرىّ ورحلة العياشى ، وألممت برحلات أخرى مختلفة مثل رحلة الوزير الغسانى ورحلة محمد بن عثمان المكناسى ثم ترجمت لكبار الكتاب ، وهم : القاضى عياض وأبو جعفر أحمد بن عطية وابن بطوطة ومحمد بن على الفشتالى ومحمد بن الطيب العلمى .

٣

وتحولت إلى موريتانيا فعرضت جغرافيتها وسكانها من قبائل صنهاجة الصحراوية ونفوذ الإسلام إليهم منذ عقبة بن نافع وقيام إمارة لهم فى أوْدغشت حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ونزول الشيخ عبد الله بن ياسين بينهم وتسميته لهم باسم المرابطين ودفعه لهم للجهاد فى السودان الغربى وتطهير قائدهم أبى بكر بن عمر للمغرب الأقصى من دعوة الروافض ودعوة قبيلة برغواطة الضالة ، ورجوعه إلى السودان المدارى لنشر الإسلام وتركه المغرب الأقصى لابن عمه يوسف بن تاشفين . وأنقذت دولة المرابطين أو دولة صنهاجة الموريتانية بقيادته الأندلس حين استصرخه أمراؤها ضد نصارى الإسبان. وضمَّها إلى دولته . وبذلك يكون لصنهاجة موريتانيا ثلاثة أعمال كبرى : تطهير المغرب الأقصى من الدعوات الضالة وإنقاذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان ، ونشر الإسلام فى شعوب السودان بإفريقيا المدارية . ويبدو أن دولة المرابطين فى موريتانيا تفككت بعد وفاة البطل المغوار المجاهد أبى بكر بن عمر ، وتتبع بعض مدنها غانة ، ويفر بعض الفقهاء من عاصمتها كومبى صالح إلى مدينة ولاته حين غزتها قبيلة الصوصو ، وبالمثل من تنبكتو حين غزتها مالى . ويمر بها جيش أحمد المنصور السعدى فى غزوه للسودان المدارى ، وينقل إلى موريتانيا كثيرا من قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها، ويكون لذلك تأثير واسع فى موريتانيا وتعريبها نهائيا ، وتنشب بين قبائلها وعشائرها حروب متصلة ولا تقوم فيها حكومة منظمة حتى العصر الحديث .

وكان سكان موريتانيا يتألفون من قبائل صنهاجة وعبيدها ، ونزلها كثيرون من قبائل المعقل العربية وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأولاد ، ويعيش السكان على زراعة الشعير والدخن والقمح ورعى الأنعام متنقلين بها وراء الكلأ ، ومن أهم ما يزرعون النخيل ليقتاتوا بتمورها ، وأهل المدن والزروع أحسن حالا من أهل المراعى . ولهم مع أهل السودان المدارى تجارة واسعة بالملح ويبيعونه لهم بأثمان مرتفعة ، ذُهل لها ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان الغربى فى إفريقيا وكأنه لم يكن يعرف مدى حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم ، وأنه هو الشىء الوحيد الذى يحفظ الماء فى الجسم فلا يتبخّر سريعا . وتلى تجارة الملح فى الأهمية تجارة الصمغ . وليس لهم نقود ، وإذا لم يكن معهم ملح أو صمغ يشترون بهما ما يريدون قدموا

للبائع الثمن أغناما . وصناعاتهم أولية ، ومعيشتهم بدوية ، ولهم سادة وشيوخ وقد تعيّن القرية أو البلدة قاضيا ، والزواج شرعىّ مالكى ، والصداق والجهاز بحسب العرف .

ولم يدخل الإسلام بلدا إلا رافقه التعليم والعلم ، إذ كان المسلمون لا ينزلون بلدا أو يفتحونه إلا أقاموا فيه مسجدا وأخذوا يدعون للإسلام ويحفظون الناس القرآن وينشئون لهم الكتاتيب ، وتتحول الناشئة بعد حفظ القرآن إلى حلقات العلماء فى المساجد يدرسون عليهم شيئا من تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى والفقه كما يدرسون عليهم العربية ، وكل ذلك حدث فى موريتانيا مثلها فى ذلك مثل بقية البيئات الإسلامية ، وقد تحول أهلها إلى مجاهدين فى سبيل الله ينشرون الدين الحنيف ويعلمونه فى السودان الغربى . وكانت تلك حركة دينية تعليمية كبرى لصنهاجة فى القرن الخامس الهجرى وبعده ، وحاولت أن أتعرف إلى علماء موريتانيا قبل القرن العاشر الهجرى الذى استكملت فيه تعريبها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، وكانت النساء هن اللائى يقمن على تحفيظ الصبية القرآن الكريم إلى الثانية عشرة من عمرهن ، وبعد هذه الدورة فى الكتاتيب ينتقلون إلى حلقات الشيوخ . والبلدان تختلف فيما يدرسه الصبى بعد ذلك مباشرة فبلاد تبدأ بالفقه وكتبه ، وبلاد تبدأ بالعربية ودواوين الشعر والعقيدة الأشعرية . ولم تكن هناك حكومة تنفق على التعليم ، فكان العلماء مثل الطلاب يعملون لكسب عيشهم . وذكرت أهم الكتب التى كانوا يتدارسونها فى مختلف العلوم والآداب ، وعرضت أعلام العلماء فى قراءة القرآن الكريم وتفسيره وفى الحديث النبوى والفقه وفى العربية وعلم الكلام .

وتحدثت عن تعرب موريتانيا وأنه بدأ بطيئا ، وأخذ فى النمو مع حركة الشيخ عبد الله ياسين ويبدو أن ولاته سبقت غيرها من المدن إلى هذا التعرب بفضل ما قام بها من حركة علمية غير أن الكثرة فى موريتانيا – وربما أيضا فى ولاته – كانت تستخدم اللغة البربرية فى حياتها اليومية حتى إذا انتشرت القبائل الحسانية وأخواتها من قبائل المعقل العربية تم تعربها ولكنها لم تنطق العربية ، إنما نطقت العامية العربية التى كانت شائعة على ألسنة عرب المعقل . وأخذت فى استعراض شعراء الموضوعات المختلفة ، وبدأت بشعراء المديح ، وترجمت لابن رازكه ومحمد اليدالى الديمانى وحرم بن عبد الجليل العلوى ، وعرضت شعراء الفخر والهجاء ، وترجمت للمختار بن بون ومحمد بن سيدىّ الأيْبَرى ، وبالمثل شعراء الرثاء ، وترجمت لباب بن أحمد بيب العلوى . وتحدثت عن شعراء الغزل ، وترجمت للأحول الحسنى ومحمد بن الطلبة اليعقوبى ويقوى الفاضلى ، كما تحدثت عن شعراء التصوف وترجمت للمختار الكنتى والشيخ سيديًا ، وعن شعراء المدائح النبوية ، وترجمت لمولود بن أحمد الجواد اليعقوبى ولمحمد بن محمد العلوى ومحمد بن حنبل الحسنى ، وبالمثل تحدثت عن الشعراء والشعر التعليمى ومنظوماتهم العلمية .

٤

ومضيت إلى السودان وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم وعلاقته بمصر الفرعونية منذ عهد الأسرة الأولى ، وكانت أراضى السودان فى حوض النيل تسمى أرض النوبة ، وبها تكونت ثلاث دول : نوبية شمالية ووسطى باسم مقرة وجنوبية تحت الخرطوم باسم علوة ، وتنصرت هذه الدول معتنقة المذهب اليعقوبى المصرى . وفى سنة ٣١هـ/٦٥٢م أرسل إلى النوبة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر لعثمان حملة توغلت حتى دنقلة . وأخذت تنزل إقليم البجّة شرقى السودان قبائل وعشائر عربية سيطرت على معدن الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى ميناء عيذاب ، وتغلغل المسلمون فى أرض النوبة لعهد الفاطميين حتى علوة فى الجنوب . وتنشب حروب بين النوبة والمماليك وتقوم فى دنقلة أول دولة إسلامية سنة٧١٦هـ/١٣١٧م وتأخذ المسيحية فى التضاؤل بإقليمها وإقليم علوة . وكان انتشار الإسلام فى غربى السودان أسرع منه فى بلاد النوبة ، نشره هناك تجار الكانم والبرنو وكتلة ضخمة من قبيلة زواوة البربرية وعرب الشاوية، وتكونت فى إقليمى وادان ودارفور مملكة إسلامية منذ القرن الخامس الهجرى . وتقوم دولة الفونج الإسلامية فى سنار أوائل القرن العاشر الهجرى/السادس عشر الميلادى لمدة ثلاثة قرون ، وتتخذ العربية لغة رسمية لها وتحدث فى البلاد نهضة علمية وأدبية وتضعف فى أواخر أيامها . ويفتح محمد على السودان سنة ١٨٢٠م ويضم إليه مينائى مصوَّع وسواكن على البحر الأحمر ، وأهم من خلفه الخديوى إسماعيل ، وينشىء خمس مدارس فى العواصم الكبرى ويُشْرك السودانيين فى الحكم ويستولى على مرتفعات إريتريا ، وأخطأ بتعيينه صموئيل بيكر ثم غردون الإنجليزيين حاكمين لإقليم منطقة البحيرات فى أعالى النيل . ويقوم المهدى بحركته الدينية الإصلاحية ويدين له السودان بجميع أرجائه ، ويخرج منه الجيش المصرى ، ويتوفى المهدى سريعا ويخلفه عبد الله التعايشى وينتصر على الحبشة مرارا ، ويمد المصريون خطا حديديا من وادى حلفا إلى أبى حمد ليساعد جيشهم فى تحركاته ضد التعايشى ، وكان يقوده كتشنر الإنجليزى ، وانتصر على جيش التعايشى نصرا حاسما فى أم درمان، وتوفى التعايشى وقام فى البلاد الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى فى أول سنة ١٨٩٩ للميلاد، وبمقتضى وثيقة سياسية جُمعت مقاليد الحكم فى السودان لحاكم إنجليزى كان أشبه بحاكم مستقل، ووضعت للسودان نظم جديدة للشئون المالية والإدارية والتعليم والقضاء والمصالح الحكومية، وأنشئت كلية غردون حتى إذا كانت سنة ١٩٢٤ للميلاد قامت فى السودان ثورة ضخمة تعد بدءًا لعصره الحديث .

ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا ، وإن بقيت بعض جيوب مسيحية ووثنية ، وفسحت دول الفونج الإسلامية للتصوف والصوفية وانتشرت الطريقتان القادرية والشاذلية وعمت النزعة الصوفية فى جميع أرجاء السودان . وكانت للمرأة السودانيه

مكانة مهمة اجتماعية وروحية ، فكانت تحضر دروس العلماء وحلقات الصوفية وتنتظم بين مريديهم وتنشد أحيانا فى حلقات الذكر . وكان بعض الصوفية يتشدد فى العهد الذى يلزم به أتباعه كعهد أحمد ود مريم الذى يدل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية خلقية قويمة . وشجع محمد على الطرق الصوفية المصرية على أن ترسل بعض دعاتها إلى السودان . وأرسل الشيخ أحمد بن إدريس الصوفى المكى أحد دعاته إلى السودان وهو محمد عثمان الأميرغنى ، فنشر طريقته من وادى حلفا إلى دنقلة وفى كردفان . ونزلت السودان طرق صوفية كالطريقة السمانية ، وهى فرع من القادرية . وظهر المهدى بطريقة جديدة دعا فيها إلى ستة مبادىء هى : الزهد ، والعمل بالشريعة المحمدية ، والأخذ بالبساطة فى الحياة ومتاعها ، ونبذ جميع الطرق الصوفية ، ونبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة ، والهجرة إلى مراكز دعوته . وظلت هذه المبادىء حية فى عهد خليفته التعايشى وانتهت الدعوة بوفاته . وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها القديم .

وكانت الناشئة فى السودان تحفظ القرآن الكريم فى الكتاتيب والخلوات ، وتنتقل بعد ذلك إلى دراسة العلوم بالمساجد والزوايا على شيوخ بلغت حلقات بعضهم ألف طالب أو تزيد ، وظلت الحركة العلمية فى عهد دولة الفونج نشيطة بل مزدهرة وأرّخ لها ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ، وفيه ترجم لنحو مائتين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وأفاض فى ذكر من درسوا من علماء السودان فى الأزهر والمدينة بالحجاز كما أفاض فى ذكر علماء الأزهر الذين رحلوا إلى السودان لتعليم أبنائه شريعة الإسلام وعلوم العربية والكلام والأصول والمنطق . ولما فتح محمد على السودان شجَّع علماء الأزهر على الهجرة إليه ، ويقال إنه شجَّع بعض الطلاب السودانيين على الالتحاق بمدرسة المبتديان ، وأنشأ الجامع العتيق بالخرطوم ليكون معهدا دينيا كبيرا على غرار الأزهر ، وأنشأ خليفته وحفيده عباس الأول مدرسة بالخرطوم جعل ناظرها رفاعة الطهطاوى ، وأغلق المدرسة سعيد خليفته ، غير أن إسماعيل أمر بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديريات ومدرسة سادسة فى مدينة سواكن . ووقف المهدى هذا النشاط التعليمى حتى إذا قام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى عاد وازداد إذ أنشئت كلية غردون وكثرت المدارس الحكومية وغير الحكومية وأنشئت مدارس أولية ووسطى فنية ، وأنشئت مدرسة للبنات ثم أربع أخرى ، وتعددت مدارس الإرساليات الدينية ، وأنشىء معهد دينى فى أم درمان ، ونما التعرف على الثقافة الغربية الحديثة وتعلم اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، وأنشىء نادٍ للخريجين تبارى فيه الخطباء ، ينادون بالإصلاح الاجتماعى والسياسى .

وكان أول نزول للعرب المسلمين بالسودان فى حملة وجَّه بها عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى الخليفة عثمان على مصر ، وتوغلت الحملة – كما ذكرنا – حتى دنقلة وأخذ كثير من قبائل

العرب وعشائرها ينزل بين قبائل البجَّة فى شرقى السودان وأسلمت منها قبيلة الحدارب كما ذكر ذلك المسعودى فى القرن الرابع الهجرى ، وظل الإسلام – ومعه العربية – ينتشر فى قبائل البجَّة ببطء ، وبالمثل فى بلاد النوبة . أما فى الغرب فكان التعرب سريعا بفضل الكتلة الضخمة من قبائل زواوة البربرية وشاوة العربية النازلة فى دارفور بالقرن الخامس الهجرى. ونشرت دولةُ الفونج العربيةَ فى ربوعها ، وبالمثل مملكةُ تقلى فى جبال النوبا وسلطنةُ دارفور وفى كردفان . ولا نصل إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى حتى يكون السودان تعرَّب ما عدا بعض الجبال الشاهقة فى أقصى الغرب ومنطقة الغابة فى الجنوب وقبيلة الأمرأر البجاوية . وعرضت شعراء المديح وترجمت للشيخ حسين زهراء والشيخ محمد عمر البنا ، وشعراء الفخر والحماسة وترجمت للشيخ يحيى السلاوى السودانى ولعثمان هاشم ، كما عرضت شعراء رثاء الأفراد وترجمت للشيخ محمد سعيد العباسى وبالمثل شعراء رثاء المدن . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت للشيخ أبى القاسم أحمد هاشم ، وعن شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن ، وترجمت للشيخ عبد الله البنا وصالح عبد القادر ، وعرضت شعراء التصوف وشعراء المدائح النبوية ، وترجمت للشيخ عمر الأزهرى والشيخ عبد الله الرحمن . ولم أؤرخ للنثر الأدبى السودانى قبل العصر الحديث إذ تكثر فيه الألفاظ العامية فى عصر الفونج ، وكُتبت بعض رسائل فصيحة فى القرن التاسع عشر ، ولكنها من القلة بحيث لا تتيح لباحث دراسة خصبة فيها . وقد تأخرت نهضة النثر السودانى حتى عصر السودان الحديث إذ نشأت فيه المقالة الأدبية والأقصوصة والقصة والمسرحية .

ومصادر ومراجع كثيرة قديمة وحديثة أفدت منها فوائد شتى فى تأليف هذا الجزء، وخاصة ماكتبه الأعلام المعاصرون فى كل بلدة من البلدان عن الحياة الأدبية فيه، إذ كان لى منارات تهدينى الطريق . وبذلك انتهت هذه السلسلة المستوعبة بأجزائها العشرة دراسة تاريخ الأدب العربى وأعلامه من الشعراء والكتاب قبل العصر الحديث ، وعنيت بأن أعرض لكل أديب روائع أدبه . وذكرت بجانب ذلكَ أعلام الفلسفة والعلوم المتنوعة من علوم الأوائل والعلوم الإسلامية وعلوم العربية والتاريخ فى كل بلد عربى على مر الزمن . وبذلك تحمل هذه الموسوعة تاريخ الأمة العربية الأدبى والفلسفى والعلمى والحضارى قبل العصر الحديث ، مبتغيا بذلك خدمة العروبة والإسلام ، والله ولى الهدى والتوفيق .

القاهرة فى أول سبتمبر سنة ١٩٩٥م

شوقى ضيف